

انتفاضة تاكفاريناس:

قراءة في كتاب الحوليات لتاكيوس

La révolte de tacfarinas:

Lecture dans le livre des Annales de Tacite.

أ.د./ محمد الهادي حارش

قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

hareche@live.fr

الملخص:

تعد انتفاضة تاكفاريناس من أعنف وأطول الانتفاضات، التي واجهها الرومان، فإلى جانب امتدادها في الزمان (17-24م)، كان لها أيضا امتداد في المجال الجغرافي، بحيث عمّت نوميديا منطلق الانتفاضة، ليشترك فيها الموريثانيون في الغرب والكنثيون في الشرق والجرميون في أقصى الجنوب في إقليم فزان. عرفنا هذه الانتفاضة بفضل كتاب "الحوليات" للمؤرخ الروماني تاكيوس (55-120 م)، الذي يعد مصدرنا الأساسي لهذه الانتفاضة، التي خاضها تاكفاريناس ضد سياسة المد الاستيطاني الروماني في المنطقة المغاربية. بالرغم أننا نجد في كتاب الحوليات، الكثير من الإشارات التي يمكن أن يستمدّ منها عمق الانتفاضة جماهيريا من ناحية، وعمق محتواها السياسي والنضالي عند الثائر تاكفاريناس من ناحية أخرى، لكن نشعر أنّ الكاتب، يتجاهل ويقلل من أبعادها الاقتصادية والوطنية، في التصدي لسياسة الاستيطان الروماني الواسعة في عهد " أغسطس " (27 ق.م - 14م)، ومن بعده نيبيريوس (14-37م)، الأمر الذي يجعلنا، نعيد قراءة الكتاب، حتى نعطي لهذه الانتفاضة، بعدها الحقيقي والاستراتيجي، إذ كان لتوزيع القيادة بين تاكفاريناس (النوميدي)، الذي تولى قيادة الوحدات النظامية ومازيبا (الماوري)، الذي قاد الوحدات الخفيفة، التي تمارس الضغط على الرومان بتاكتيك الكر والفر، الذي أنهك الرومان قديما والاستعمار الفرنسي حديثا، وأعطى إحساسا بالقوة للثائرين، جعل تاكفاريناس، يرسل وفدا للإمبراطور تيبيريوس، يطالبه بإعادة الأرض لأصحابها، وهو ما يدل على أنّ الأرض وسياسة الاستيطان الروماني، كانت السبب في قيام هذه الانتفاضة، وليست اللصوصية والتسكع كما يقول تاكيوس، وهو ما دفعنا لتقديم هذه القراءة.

Resumé:

La révolte de tacfarinas est considérée comme l'une des violente et plus longue, en plus de son étendu dans le temps (17-24 ap.jc.) elle s'est étalé de la Numidie, le berceau de la révolte à la Maurétanie à l'ouest et les Cinithiens à l'est et les Garamantes à l'extrême sud.

On 'a connu cette révolte grâce au livre des Annales de l'historien Tacite, que nous considérons comme source principale de cette révolte qu'a tenue Tacfarinas contre la politique de colonisation romaine dans la région du Maghreb.

Même si on trouve dans le livre des Annales beaucoup de signe de la profondeur populaire de cette révolte d'un coté et le fond de son contenu politique et militantisme chez le révolutionnaire Tacfarinas de l'autre coté. Mais on sent que l'auteur a niée et minimisé ses dimensions économiques et nationalistes, dans l'affrontement de la politique de la colonisation romaine au temps d'Auguste (27 av.jc.-17 ap.jc.).

Ce qui nous pousse a relire le livre, pour donner a cette révolte sa dimension réelle et stratégique.

Si le partage du commandement entre Tacfarinas (le Numide) qui à commandé les troupes régulières et Mazipa (le Maure) qui commandé les troupes légères, qui utilise la guerria comme tactique, ce qui à causé beaucoup de mal au romains et donner un sentiment de force aux révolutionnaire, ce qui a pousser Tacfarinas à envoyer des émissaires à l'empereur Tibere lui demandant de rendre les terres à leur propriétaire.

تعدّ ثورة تاكفاريناس من أعنف وأطول الثورات التي واجهها الرومان، فالى جانب امتدادها في الزمان (17-24 م)، وهي في هذا تقارن بحرب يوغرطة ضد الرومان (111-105 ق.م)، وبالثورة التحريرية (1954-1962م)، كما كان لها امتداد أيضا في المجال الجغرافي، بحيث عمّت نومديا، منطلق الثورة، ليشارك فيها الموريطانيون في الغرب والكنتيون في الشرق والجرمانتيون في أقصى الجنوب بإقليم فزان. هذه الثورة عرفنا بفضل كتاب "الحواليات" للمؤرخ الروماني تاكيتوس (55-120 م)، مثلما عرفنا حرب يوغرطة بفضل مواطنه سالوستيوس (86-35 ق.م).

يبدأ تاكيتوس في سرد الأحداث بالقول: «... في السنة نفسها بدأت الحرب بإفريقيا، وكان العدو بقيادة تاكفاريناس، نوميدي، خدم كجندي مساعد في القوات الرومانية، ثم فرّ من الجندية، جمع في البداية للسرقة، والغنائم، عابات متسكعين متعودين على اللصوصية وقطع الطرق، سرعان ماعودهم على النظام، وقام بتوزيعهم إلى مغاز وسرايا، أخيرا من رئيس عصابة متسكعين، أصبح قائدا للموزولابين، هذا الشعب القوي، المتاخم لصحراء إفريقيا، والذي لم يكن له أيضا حتى ذاك مدنا.

حمل السلاح، وجرّ إلى الحرب جيرانه الموريين: هؤلاء أيضا كان لهم قائدهم "مازيبا"، ثم تقسم القوات: كفل تاكفاريناس بالإبقاء في المعسكرات وتعويد على الانضباط والنظام رجال النخبة المسلحين، وفق الأساليب الرومانية، بنما يتولى مازيبا مع القوات الخفيفة إضرام النار والتقتيل وزرع الرعب في كل مكان، كانوا قد أجبروا من الأب الكنتيين، هذا الشعب الذي لا يجب التقليل من شأنه على الانضمام إليهم».

هكذا قدم لنا تاكيتوس، تاكفاريناس وتمرده وإعلان العصيان حسيه، لكن دون أن يذكر لنا دواعي هذا التمرد وأسباب هذا العصيان، كيف لجندي في صفوف الوحدات المساعدة، يترك مركزه ومنصبه، للتسكع ونشر الخراب والدمار إذا لم تكن له أسباب -ربما- قاهرة، لكن تاكيتوس يسكت عن ذكر هذه الأسباب التي لا شك لها علاقة بالسياسة الرومانية في المنطقة المغاربية.

إذا كان كذلك، تاكفاريناس، جندي فار يجمع عصابة من اللصوص والمتسكعين، للتهب والتخريب وبت الذعر، نتساءل كيف أصبح قائدا لقبيلة "الموزولام"، الضاربة في الأوراس الأشم من خنشلة إلى تبسة، وكيف ينضم إليه الكنتيون والموريون وحتى الجرمانتيون، في إقليم فزان، مما يعني أن لهيب الثورة شمل كامل المنطقة المغاربية، من فزان جنوبا إلى إقليم السرت شرقا حتى بلاد المور غربا، فهل نعد كل هؤلاء لصوصا متسكعين!؟

يذكر تاكيتوس أن هؤلاء "الموزولام" لا يعرفون المدن حتى عصره، مما يعني بُعدهم عن المدينة، وأنهم مازالوا همجا متخلفين، ونحن نعرف أن مدينة تبسة (تاوست/ تافست) إحدى حواضر هذه القبيلة، قد تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، مادام حنون قد فرض الأولى أثناء ضريبة ضخمة، وأخذ منها ألف وخمسمائة (1500) رهينة، وقد تحدث قبله مواطنه سالوستيوس عن قفصة وتالة وسوثول (قالمة أو ضواحي قالمة) وغيرها من المدن، كان الموزولايون على اتصال بها.

إذن لم يكن هؤلاء "بدوا رحلا همجا" كما يحاول الإيحاء به، وإتّما كان الكثير منهم مزارعين مستقرين، كان الدفاع عن أراضيهم أحد الأسباب الرئيسية لهذه الثورة، وهو ما يؤكد الوفد المرسل من طرف تاكفاريناس

إلى الإمبراطور تيبيريوس (14-37 م) بناء على تاكيتوس (III، 73، 1)، يدعو إلى إعادة الأرض إلى أصحابها، ويهدده بحرب لا هواده فيها.

لم يذكر تاكيتوس الأسباب، التي دفعت " تاكفاريناس " إلى التمرد عن الجيش الروماني وإعلان الثورة، لكن لا شك أنّ سياسة " روما " تجاه مواطنيه، كانت السبب في ذلك، فقد كان لابد من مواجهة السياسة التوسعية لروما على حساب أراضي المواطنين، إذ يشير بعض المؤرخين إلى عمليات توزيع الأراضي، التي قام بها الإمبراطور أغسطس (27 ق.م. - 14م)، وبعدها تيبيريوس على النازحين من إيطاليا، وهي الأراضي، التي يكون تاكفاريناس قد طالب بإعادتها إلى أصحابها كشرط لإيقاف لهيب الثورة.

نحن نعرف أن أغسطس أنشأ ثلاث عشرة (13) مستوطنة موزعة على السواحل المتوسطية والأطلسية، وبعض المناطق الداخلية في فترة خلو العرش الموريطاني (33-25 ق.م.)، من ناحية والشروع في مد خط الطريق الرابط بين قابس-حيدرة، مرورا على قفصة مع إقامة مقر الفرقة الأغسطية الثالثة في حيدرة، بهدف مراقبة قبائل الموزولامي النوميديّة والحد من تحركاتها، وهو ما يفسر اندلاع الثورة مباشرة بعد إقامة هذا الخط.

هكذا يدعونا هذا الوفد المرسل من تاكفاريناس، إلى الإمبراطور تيبيريوس إلى التساؤل إن كان تاكفاريناس، مجرد جندي فار، التحق بعصابات اللصوص، وقطّاع الطرق كما يذكر تاكيتوس (II، 52، 1)؟ لكن شمولية الثورة وانضمام القبائل الموريطانية في الغرب والكننتيين في الشرق وحتى الجرامانت في أقصى الجنوب، ومعاضدة تاكفاريناس، يعطي لهذه الثورة بعدا إقليميا، يتجاوز حدود نوميديا، مما يدل على أنّ الشرخ، الذي تسبب فيه الاستيطان الروماني، كان كبيرا، جعل كل المواطنين الذين يفضلون الحرية على العبودية (تاكيتوس IV، 24، 1) يلبون النداء، ما أعطى هذا الإحساس بالقوة لقائد الثورة، جعله يهدد الإمبراطور.

إذا كان تاكيتوس يقر بمشاركة النوميديين والموريين والكننتيين منذ البداية وانضمام الجرامانتيين إليهم لاحقا، يعني أنّ المنطقة الممتدة من السرت إلى الجرامانت مرورا بنوميديا إلى الموريين الذين كانوا تحت حكم يوبا الثاني منذ سنة 25 ق.م، يعني أنّ المنطقة المغاربية من طرابلس إلى فزان والمحيط قد لبّت نداء الثورة، وإذا عرفنا ثورة الجيتوليين قبل ذلك سنة 06 ق.م.، ضد يوبا الثاني، أدركنا أنّ الأسباب التي أدت إلى هذا الغليان، كانت قوية وعميقة، وإذا حاولنا أن نترصد ذلك منذ أن وطأت أقدام الرومان البلاد المغاربية سنة 146 ق.م.، نجد أولا، تحويل الأراضي التي كانت في حوزة قرطاجة قبل الحرب البونيقية الثالثة (149-146 ق.م.) إلى مقاطعة رومانية، فصلها سكيبيو إيميليانوس عن أراضي نوميديا، بالخذق الملكي (Fossa Regia)، وهي الأراضي، التي عمل كايوس كراكوس (154-121 ق.م.) على إحياء مشاريع الإصلاح الزراعي بها، بمحاولة إنشاء مستوطنة " يونونيا قرطاجو "، كما استولى ماريوس بعد حرب يوغرطة (111-105 ق.م.) على مساحات هامة في سهل مجردة وطنّ بها قدامى محاربيه، وقد أعطى كايوس قيصر بعد ذلك طابعا رسميا ودفعيا قويا للاستيطان، حتى خارج الأراضي القرطاجية، وهي السياسة، التي سار عليها

أكتافيوس أغسطس بإنشائه ثلاث عشرة (13) مستوطنة في المناطق الساحلية والداخلية في فترة خلو العرش الموريطاني (33-25 ق.م.)، لتوطين بها الجنود المسرحين والفلاحين الذين فقدوا أراضيهم في إيطاليا. امتدت هذه المستوطنات من جيجل وبجاية شرقاً إلى طنجة وباناسا (سيدي علي بوجنون) غرباً، وكان الهدف منها هو تحضير سكان هذه المناطق لقبول توطين المزيد من المستوطنين ومن ثم الإلحاق لاحقاً، ما جعلها بمثابة مراكز أمامية للرومنة، وهو ما جعل الموريطانيون يشاركون بقوة في هذه الثورة، أمام تقاعس وتساهل يوبا الثاني بعد ذلك أمام هذا المد الروماني، الذي لم يعرف لشراسته حدوداً، فكان تزايد عدد المعمرين دائماً يتم على حساب أجود أراضي الأهالي، الذين يدفعون إلى الأراضي الجبلية الفقيرة التربة أو الأراضي الصحراوية الجرداء، ما خلق انعدام التوازن.

سياسة تجريد الأهالي من أراضيهم هذه، تبعتها سياسة رومانية لحماية تلك المستوطنات بإقامة الحصون والقلاع التي تم ربطها بطرق لتسهيل عملية الاتصال فيما بينها وتمكين الوحدات العسكرية من التحرك كلما كانت الحاجة إلى ذلك «الليمس» لعزل المغاربة، ولا شك أنّ هذه السياسة، قد دفعت السكان إلى خيار المواجهة، فكانت حرب يوغرطة (111-105 ق.م.) ثم الجرامانت سنة 19 ق.م.، وبعدها الجيتول الذين ثاروا ضد يوبا الثاني في السنة السادسة للميلاد، قبل أن تلتحم كل هذه القبائل في ثورة تاكفاريناس (17-24م) من المحيط غرباً إلى السرت شرقاً وجرمة جنوباً.

يذكر بعد ذلك تاكيتوس أنّ بروفنصل أفريقية فوريبوس كاميلوس (F.Camillus)، وضع فرقته وما توفر له من الفرق المساعدة، تحت الرايات، وزحف على العدو، كانت كمشة من الرجال بمراعاة حشد النوميديين والموريين، لكن كان يتجنب خاصة أن يلهم هؤلاء البرابرة الخوف، الذي يجعلهم يعرضون عن القتال، يجعلهم يأملون النصر، قبل تاكفاريناس المعركة، فانهزم النوميديون، شر هزيمة ودخل المجد العسكري من جديد إلى بيت آل فوريبوس....

فوريبوس هذا، الذي نتحدث عنه، كان يُنظر إليه كشخص لا يعرف شيئاً في أمور الحرب (II، 52، 3). هكذا رسم لنا تاكيتوس "صورة" اللقاء الأول بين القوات الرومانية وتاكفاريناس، لا يتوفر كاميلوس إلا على كمشة من الرجال، أمام حشد النوميديين والموريين، ومع ذلك حرص على عدم بعث الخوف في صفوف النوميديين والموريين، حتى لا يفرون، ويعرضون عن القتال أمام هذه الكمشة من الرجال، وعندما يدخلون المعركة يهزمون شر هزيمة، أمام كمشة يقودها قائد، كان يُنظر إليه كشخص لا يعرف شيئاً في أمور الحرب، ما يدعونا إلى التساؤل إن كانت الرعاية الإلهية وحدها أم السبيرييا-رومانا هما وراء هذا النصر؟ إذا كان تاكيتوس يكتفي بالقول كمشة من الرجال بقيادة قائد عديم الخبرة بالنسبة للرومان، أمام حشد من النوميديين والموريين، فإننا نتساءل اعتماداً على مصدر، اعتمدت راشي، حتى قدرت (Rachet M. 1970,P91) عدد القوات الرومانية (16000) جندي مقابل ضعف هذا العدد عند تاكفاريناس، حتى تخفف من هول الصدمة، مع إضافة أن حسن التنظيم عند القوات الرومانية، كفيل بالتغلب على التفوق العددي للنوميديين، لكنها، نسبت أنّ القوات الرومانية، كانت تحت قيادة قائد لا يعرف شيئاً في فنون الحرب بناء على تاكيتوس نفسه (II، 52، 4).

هزم إذن " تاكفاريناس " هكذا؟ شر هزيمة رغم تفوقه العددي، لكن استأنف في السنة نفسها الحرب بناء على تاكيتوس، حيث يقول في الكتاب الثالث (1،20،III): «استأنف الحرب، كانت في البداية عمليات نهب معزولة، وكانت سرعته، تحميه من العقاب، لكن سرعان ما بدأ ينهب الضيع، ويحصل على كميات كبيرة من الغنائم، وانتهى إلى محاصرة كتبة رومانية، قرب نهر باجيدا، الموقع كان تحت قيادة ديكيريوس (Decrius) جندي شجاع، مقدم، وقائد متمرس، اعتبر هذا الحصار إهانة، حثّ قواته على المعركة في مكان منبسط، بعد أن اصطفها أمام المعسكر، ردت الكتيبة منذ الاصطدام الأول، ارتدى ديكيريوس، تحت وابل من الحراب وسط الفارين، محاولا إيقافهم، ينادي حاملي الرايات " أنه من العار أن يولي الجندي الروماني ظهره لوحدة غير نظامية وللفارين"، مثخن بالجروح وفتت عينه، وحارب حتى سقط ميتا، وقد تخلى عنه رجاله» (2،20،III).

صورة عكسية يقدمها تاكيتوس لقائد روماني مقدم، يرى من العار أن يولي الجندي الروماني ظهره لقوات غير نظامية ولجندي فار.

نتساءل أولا كيف لتاكفاريناس، الذي انهزمت قواته شر هزيمة أن يستأنف القتال في السنة نفسها، وتعجز القوات الرومانية أن تتصدى للعمليات المعزولة كما سماها تاكيتوس (20،III)، لتتطور إلى نهب الضيع والحصول على الغنائم، التي تنقل حركاته، ثم يجرؤ على محاصرة القوات الرومانية، التي تفر من الميدان، وتترك قائدها يواجه مصيره؟

كما نتساءل عن كيفية خروج هذه القوات من الحصار والفرار دون أن يتمكن منها تاكفاريناس، وينشغل فقط بقائدها؟

يذكر تاكيتوس أن لوكيوس أبرونيوس (L.APRONIUS) خليفة كاميلوس، قد انزعج من الخزي الذي نال الرومان، على إثر نبال هذه الهزيمة، أكثر من انزعاجه من نصر العدو، وقدم مثلا نادرا في هذه الفترة عن صرامة الأسلاف، أهلك القسم الأكبر من الكتيبة الدنيئة... هذا التصرف الصارم، كان فعلا، لدرجة أن فيلقا من قدامى المحاربين، يتكون من خمسمائة (500) رجل تقريبا، تحدى وحده قوات تاكفاريناس نفسها قرب " تالة" التي قدم لمهاجمتها (21،2،III).

يبدو من السذاجة أن نقبل هكذا بالأشياء دون نظر، أن لا تصمد القوات الرومانية المقدرة بستة عشر ألف (16000) محارب (Rachet M. 1970,P91, n°1) أمام قوات تاكفاريناس المقدرة بضعف العدد أي في حدود اثنين وثلاثين ألف (32000) مقاتل، تواجه بخمسمائة مقاتل، وتفر بمجرد رؤية القوات الرومانية!!

شيء يستدعي فعلا التساؤل، تاكفاريناس يضرب القوات الرومانية في الصميم، يشعر على إثرها أبرونيوس بالخزي، والإمبراطور يشعر بالإهانة (73،2،III)، ويتقدم تاكفاريناس، لمحاصرة مدينة " تالة" القريبة جدا من مقر "الفرقة الأغسطية الثالثة"، وهو ما يعني في رأينا شعوره فعلا بالتفوق، لأن لو لا ذلك لما اقترب من الفرقة العسكرية الأهم في شمال إفريقيا، لكن ينسحب أمام خمسمائة (500) مقاتل روماني؟! طبعا هذا يتجاوز "السيبيريا- رومانا".

مما يقوي الشك في رواية تاكيتوس، التي لا شك فعلا في تحيزها، سكوت تاكيتوس، مصدرنا الوحيد عن سرد الأحداث، التي جرت خلال سنتي (18-19)، حتى يخال للمرء أنّ تاكفاريناس، قد توقف عن العمل العسكري، خلال هذه الفترة، لكن نجد في المسكوكات ما يشير إلى استمرار المعارك في تلك الفترة، إذ يبدو على العملة، التي سكّها يوبا الثاني خلال سنتي (18-19)، ما يشير إلى ذلك، ومما يدعم هذا الرأي، ويدعم فكرة تراجع القوات الرومانية، الذي يكون قد دفع تاكيتوس إلى السكوت، هو استقدام الفرقة الاسبانية التاسعة في منتصف أبريل سنة 20، لأنّه لو هدأت الحرب أو توقفت الثورة، وكان وضع الرومان مريحا، لماذا استقدم هذه الفرقة لدعم الفرقة الأغسطية الثالثة؟

أضف إلى ذلك مراسلة الإمبراطور لمجلس الشيوخ بناء على تاكيتوس (32.11، 1) يدعو إلى اختيار بروقنصل لإفريقية، يكون رجلا قويا له دراية بشؤون الحرب، يمكنه تحمل هذه الحملة.

نلاحظ في المصطلحات والتعابير، التي استخدمها تاكيتوس على لسان الإمبراطور: «رجل قوي له دراية بشؤون الحرب يمكنه تحمل...» ما يدل على شعور الإمبراطور بالإحباط وخطورة الوضع سنة 21م، بعد إخفاق أبرونيوس، كما نلاحظ أيضا ما يعني أنّ القادة السابقون لم تكن تتوفر فيهم المواصفات السابقة رغم ما أضفاه تاكيتوس عليهم من أمجاد في إطار السيبيرييا-رومانا.

وما إرسال تاكفاريناس لوفد إلى الإمبراطور، يطالبه بإعادة الأرض إلى أصحابها وإلا يهدده بحرب لا هواده فيها سنة 21م، إلا دليل على هذا الإحساس بالقوة.

لما كان تاكفاريناس يمازج بالتناوب بين الهجوم ونصب الكمائن، قد أقلق القوات الرومانية، وربما حتى تاكيتوس، الذي وقع في تناقضات لا حصر لها، عندما أراد أن يصف أو الحديث عن هذا التاكتيك، " رأى تاكفاريناس نوميديّة وقد وهن عزمهم، وملوا من الحصار والحرب المبعثرة، المتناثرة، يفر بمجرد الهجوم عليه، ويعود عاجلا للهجوم على ساقّة العدو. مادام البارباري يطبق هذا التاكتيك، تلاعب بجهود الرومان، الذين يجهدون أنفسهم عبثا في ملاحقته. عندما أدار وجهته تجاه المناطق الساحلية وهو مثقل بغنائمه، وكان عليه الخضوع للإقامة في معسكرات ثابتة، عندئذ قام أبرونيوس كايزيانوس (Apronius Caesianus)، الذي أرسله والده مع الفرسان وكتائب مساعدة مدعمة بالفريقين الأكثر خفة، بشن هجوم على النوميديين، الذين ردهم إلى صحرائهم". (الحوليات، III، 21، 4)

حول هذه الفقرة نقدم الملاحظات التالية:

1- الجيش الذي وهن عزمه، ويفر بمجرد الهجوم عليه، لا يمكن أن يعود للهجوم حالا، إلا إذا كان تظاهرا بالانسحاب والعجز، حتى يهاجم فجأة ويبدد ساقّة العدو، وهو ما لم يدركه تاكيتوس الذي اعتبر ذلك التراجع للهجوم ثانية فرارا.

2- تاكفاريناس المثقل بالغنائم، التي أرسل جزءا منها إلى حليفه " ملك الجرامنت" حسب شهادة تاكيتوس نفسه (IV، 2.23)، دليل على أنّ القوات الرومانية، التي أجهدتها تاكفاريناس، قد عجزت عن التصدي لحمالاته الموجهة ضد المدن والضيع الرومانية، التي يقول تاكيتوس أنّ النوميديين ملّوا "الحصارات"، طبعاً هذا لكثرتها، لكن يبدو لي أنّ "الحصار" المجلب للغنائم يستهوي الجندي، ولا يمكن أن يصدقه.

3- طبعا، حفظا لماء الوجه - كما يقال- يشن أبرونيوس هجوما على النوميديين، ويردهم من الساحل إلى الصحراء، هكذا دون أن يقول شيئا لا عن الساحل ولا الصحراء تلك، لكن يعود ويقول مباشرة بعد ذلك (III، 32، 1): «بعدها بوقت قليل، رسالة من تيبيريوس تعلم الشيوخ أنّ إفريقيا كانت عرضة من جديد للاضطرابات بسبب غارة تاكفاريناس»، ويعطي مواصفات البروقنصل، الذي ينبغي اختياره: «أن يكون رجلا قويا، له دراية بشؤون الحرب، يمكنه تحمل هذه الحملة»، هكذا يدل اشتراط هذه المواصفات في البروقنصل القادم، أن السابقين لم تتوفر فيهم هذه المواصفات، ما يدل على شعور الإمبراطور بالإحباط وخطورة الوضع سنة 21م، بعد إخفاق أبرونيوس، رغم سكوت تاكيتوس في إطار السيبيريا- رومانا.

4- يعود تاكيتوس (III، 73، 1) ليبرر إخفاق الرومان، الذين عادة ما تتفوق جيوشهم على تاكفاريناس، وترده على أعقابهم، لكن هذا الأخير يجد الدعم في داخل إفريقيا، ويستعيد قواه، حتى أنّ الوقاحة، قد دفعته إلى درجة إرسال سفارة إلى تيبيريوس، تطالبه بتمكينه وأتباعه -هكذا أتباعه- من أراضي " أو يهدد بحرب لا هوادة فيها".

يوصل تاكيتوس: «أنّه لم يسبق لإهانة للإمبراطور شخصيا، وللشعب الروماني، أن أثارت سخطه وغضبه مثلما أثاره جندي فار، وقاطع طريق، ينصب نفسه كقوة عدوة، يهدد الإمبراطور، كيف لروما، التي لم تستسلم أيام هزتها ثورة سبارتاكوس وحروب سيرتوريوس وميثريدات، واليوم الإمبراطورية وقد استعادت عافيتها بالسلم وتتنازل عن الأرض لقطاع الطرق» (III، 2، 73).

سكوت تاكيتوس عن وضعية روما الحرجة في إفريقيا سنة 21م، هي التي رفعت من معنويات تاكفاريناس، وجعلته يخطو هذه الخطوة بإرسال وفد إلى الإمبراطور سنة 22م، يطالبه باستعادة الأرض، ما اعتبره تاكيتوس عجرفة من تاكفاريناس.

والواقع أنّ الأمور، كانت تسير لصالح تاكفاريناس حتى بعد وصول دولابيللا في يوليو 23م، فمن جهة كانت وفاة يوبا الثاني خلال هذه السنة، قد وضعت ابنه بطليموس على العرش، وكان شبابه ولا مبالاته قد دفعت الموريين إلى الوقوف إلى جانب تاكفاريناس مفضلين الحرب على حكم العتقاء وسلطة العبيد وفق تعبير تاكيتوس (IV، 1.23)، وكان تاكفاريناس قد نجح في الحصول على المساهمة الفعلية من الجرامانت وقواتهم، دون احتساب مساهمة العديد من الغاضبين وغير الراضين عن الوضع في مقاطعة إفريقيا ذاتها، فضلا عن ذلك، كان سحب الفرقة الإسبانية التاسعة، قد عرى جزئيا الجبهة الإفريقية، وهو ما لم يفت استغلاله من طرف تاكفاريناس دعائيا، إذ اتخذ من ذلك دليلا على أنّ الإمبراطورية في ضيق شديد، وهي حملة دعائية، تترجم رؤية تاكفاريناس للإستراتيجية الشاملة، التي تحدد وضعية إفريقيا في إطار أوسع للصعوبات التي تعرفها روما مع إمبراطوريتها، وهذه النظرة تضع تاكفاريناس في موضع القائد المطلع، الذي يضع نفسه في خدمة قضية محددة، وليس زعيم عصابة أو قائد قوم نهايين رحل، كما ركزت عليه السلطات الرومانية، وينقله تاكيتوس.

الانتفاضة، لم تكن مرتجلة، فقد سبقت بتنظيم وتنسيق دبلوماسي محكم وجاد، إذ لم يكن الموزلاميون وحدهم في الحرب، وقد تحالفوا مع المور في الغرب، بقيادة مازيبا، ومع الكنتيين في الشرق، قرب السرت،

فتشكت جبهة على الحواف الشمالية لمملكة يوبا حتى السرت، وحدث تقسيم للعمل داخل هذه الجبهة، التي امتدت حتى جرمة في إقليم فزان، ما يعني أنّ الوضع كان خطير، ما جعل الإمبراطور يتمنى سنة 21م إرسال قائد إلى إفريقيا قادر على تحمل تبعات الحملة، وما إرسال تاكفاريناس لوفد سنة 22م، كما قلنا إلا دليل على وضعه المكين، هذا الوضع الذي ازداد متانة سنة 23م، جعل تاكيتوس يصمت عن رواية الأحداث، التي جرت أثناء هذه السنة، ولم ينطق بصرخة الخلاص، حتى سنة 24م، السنة السابعة للانتفاضة: «هذه السن حررت أخيرا الشعب الروماني من الحرب الطويلة ضد تاكفاريناس» (1.23، IV)، ويضيف: «حتى ذلك، في الواقع اكتفى قادتنا بالحصول على أوسمة النصر،...الآن ثلاثة تماثيل مكلفة بالغار، بقاعة في روما وتاكفاريناس مازال ينهب إفريقيا...»، وهو ما يعني أنّ القادة الرومان، كانوا يحتفلون بالانتصارات على تاكفاريناس، وتاكفاريناس حر طليق، واكتفوا بالحصول على أوسمة النصر، وإقامة التماثيل المكلفة بالغار، وتاكفاريناس مازال ينهب إفريقيا، طبعا تاكفاريناس من ينهب إفريقيا!

وبالرغم من النطق بصرخة الخلاص في السنة السابعة، لكن "روما" و"قاداتها" يدركون أنّهم كلما فشلوا ميدانيا، يلجأون إلى مقارعة هؤلاء الذين يصفونهم بشتى الأوصاف، قطاع الطرق، اللصوص المتسكعين والباربار المتوحشون قديما، وهي الأوصاف، التي احتفظ بها الاستعمار الحديث في وصف الثوار، الذين يطالبون بالحرية والاستقلال، فكانوا يصفونهم بالخارجين عن القانون، باللصوص المخربين...وتاكفاريناس كان يدعو بدوره مواطنيه الذين يفضلون الحرية على العبودية، للانضمام إليه (1، IV، 24)، فكان يطالب إذن بحرية الوطن والمواطن، ولم يكن لصا متسكعا، مثلما لم يكن هؤلاء الثوار من اللصوص المخربين، لكن زاوية النظر هو الاختلاف، فما أحوجنا اليوم إلى قراءة تاريخنا من زوايا أخرى، غير الزوايا التي رسمها لنا الاستعمار القديم والحديث.